

يا عمال العالم، اتحدوا!

# طريق البلشفية



لينين

مقدمة لمجموعة مقالات «اثنى عشر سنة»

أيلول 1907

ترجمة

محمد علي العربي

نشر المنشور البلشفي العربي

الفيروان، أيار 2015

المصدر المعتمد في الترجمة:

LENIN: CW, 13 : 95-113, 4<sup>th</sup> Ed. 1978.

Progress Publishers, Moscow.

تغطّي هذه المجموعة من المقالات والكراسات التي نقدّمها للقارئ الفترة الممتدّة من 1895 إلى 1905. إنّ القضايا المتعلقة بتنظيم الاشتراكية الديمقراطية الروسية وتكتيكها وبرامجها تؤلّف محور الكتابات المجمعة في تلك المجموعة. وهي القضايا التي تطرح نفسها والتي تدرس على الدوام خلال كامل التّصال ضدّ الجناح اليميني في التّيار الماركسي في روسيا.

جرى هذا التّصال، في بدايته، في المجال النظري المحض، ضدّ الممثل الرئيسي للماركسيّة العنيفة في العقد التاسع: السيّد ستروفه. لقد تميّزت نهاية سنة 1894 وبداية سنة 1895 بانعطاف مفاجئ في صحافتنا السياسيّة العنيفة. فلاوّل مرّة تدخلها الماركسيّة لا بفضل مناصلي «تحرير العمل» في الخارج فحسب، بل أيضا بفضل الاشتراكيين الديمقراطيّين الروس. إنّ ما سبق من أدبياتنا ومن جدال حدّ بين الماركسيّين وزعماء الشّعبيّة الشيوخ، الذين كانوا إلى ذلك الوقت يهيمون دون منازع على الأدب الطليعي، كالسيّد ميخائيلوفسكي مثلا، كان كلّ ذلك علامة نهوض الحركة العماليّة الجماهيرية في روسيا. فكتابات الماركسيّين الروس تسبق مباشرة التّصال العماليّ النّشيط، والإضرابات الشّهيرة عام 1896 في بطسبرغ التي كانت علامة على نهوض الحركة العماليّة الّذي لم ينقطع منذ ذلك الحين، والذي كان عاملا حاسما في ثورتنا.

إنّ ظروف التّحفّظ على الصّحافة في ذلك الوقت أرغم الاشتراكيين الديمقراطيّين على التحدّث بلغة إيسوب، والاقصّار على اعتبارات عامّة جدّا بعيدة كلّ البعد عن الممارسة والسياسة. لقد سهّل هذا الوضع، على نحو خاصّ، تجميع عناصر ماركسيّة متشتّنة في التّصال ضدّ الشّعبيّة. لقد خاض هذا التّصال الاشتراكيون الديمقراطيّون في روسيا وأولئك الذين كانوا في الخارج ولكن خاضه أيضا أشخاص أمثال السادة ستروفه وبولكاكوف وتوغان-باراوفسكي وبيرديف وغيرهم. بالنّسبة لهؤلاء الديمقراطيّين البرجوازيّين لا تعني القطيعة مع الشّعبيّة، الانتقال من الاشتراكية البرجوازية الصّغيرة (أو الفلاحية) إلى الاشتراكية العماليّة مثلا هو بالنّسبة لنا، وإنّا يعني ذلك الانتقال إلى اللّبراليّة البرجوازية.

اليوم، تاريخ الثّورة الرّوسيّة بوجه عامّ، وتاريخ حزب الكاديت بوجه خاصّ، وتطوّر السيّد ستروفه (إلى حدّ الأكتوريّة) على نحو أخصّ، — كل ذلك جعل هذه الحقيقة جليّة. وأصبحت عملة جارية عندنا. لكن في تلك الفترة، خلال سنوات 1894-1895، كان يتوجّب البرهان على هذه الحقيقة على قاعدة انحرافات عن الماركسيّة قليلة الأهميّة نسبيا عند هذا التّأثير أو ذاك؛ ففي تلك الفترة، تلك العملة بصدد الصلّك. ولهذا السّبب أعيد من جديد، هنا، نشر عمليّ الموجه

ضد السيد ستروفه (يتعلق الأمر بمقال «المحتوى الاقتصادي للشعبوية وكيف انتقدها السيد ستروفه في كتابه» الذي نشر بإمضاء ك. تولين ضمن مجموعة أحرقتها الرقابة: «وثائق لتحديد طبيعة تطوّرنا الاقتصادي»، سان بطرسبرغ) وذلك لثلاثة أسباب: أولا. بقدر ما أمكن للقراء أن يطلعوا على كتاب السيد ستروفه وكذلك على مقالات لشعبيين آخرين ضد الماركسيين التي كتبت في سنوات 1894-1895، كان من اللازم نقد مفاهيم السيد ستروفه. ثانيا. إن التنبيه الذي وجهه أحد الاشتراكيين الديمقراطيّين الثوريّين للسيد ستروفه، في الوقت الذي نحوض فيه عملا عامّا ضدّ الشعبويّين، كان يمكن أن يكون جوابا للذين كثيرا ما ألقوا علينا اللوم لتحالفا مع أشخاص من ذاك القبيل فننقد عراقة تجربة السيد ستروفه السياسيّة. ثالثا. إن النقاش السياسي القديم بمختلف أشكاله يتخذ معنى مثال بئاء. فهذا المثال يبيّن الأساس السياسي والعملية المتين لنقاش نظري شرس. فكم مرّة لم يتهم فيها الاشتراكيون الديمقراطيّون الثوريّون بالتزوع إلى المبالغة في هذا النقاش أو ذاك مع «الاقتصاديّين» والبرنشتاينيّين وذلك مع المناشقة؟ وها أتنا الآن نسمع ذات اللوم من أفواه «التوافقيّين» داخل الحزب الاشتراكي الديمقراطي وفي أوساط «المتعاطفين» أنصاف الاشتراكيين خارج الحزب. إنّه يحلو للبعض عندنا أن يكرر أن التروس بوجه عامّ، والاشتراكيين الديمقراطيّين بوجه خاصّ، والبلاشفة على الأخصّ لهم نزوع لا حدّ له نحو الجدل ونحو الانقسام. ويحلو للبعض عندنا أن ينسوا أنّه في ظروف البلدان الرأسمالية بوجه عامّ، وفي الظروف البرجوازية الروسية بوجه خاصّ، وفي ظروف حياة ونشاط مثقفينا على الأخصّ يولد نزوع لا حدّ له للانتقال من الاشتراكية إلى اللبرالية. من هذه التزاوية ليس دون منفعة أن نلقي نظرة على ما جرى طيلة عشر سنوات مضت من اختلافات نظريّة كانت برزت وقتئذ مع «الستروفية»، اختلافات ضئيلة (ضئيلة من الوهالة الأولى) كانت مصدر تمايز سياسي كامل بين أحزاب، وصراعا لا هوادة فيه دار في البرلمان كما في جملة كاملة من الجرائد وفي اجتماعات عامّة، الخ.

ويجب أن أشير أيضا، في ما يخصّ المقال ضدّ السيد ستروفه، أنّه مقال كت شرحته في خريف 1894 أمام حلقة صغيرة من ماركسيّتي تلك الفترة وكان لها بمثابة الأساس. وكانت مجموعة الاشتراكيين الديمقراطيّين التي تناضل وقتئذ في بطرسبرغ، والذي أُلّف بعد سنة من ذلك «اتّحاد النضال لتحرير الطبقة العالّية» ممثلة من «س.» و«ر.» وأنا نفسي. وكان يمثّل الماركسيّين العليّتين ب. ستروفه و أ. بترسوف و ك. وكان عنوان البحث الذي تلوته في تلك الحلقة

«انعكاس الماركسيّة في الأدب البرجوازي». ومثلما يشير العنوان كان الجدل فيه مع ستروفه أكثر صلابة وأكثر تحديدا بما لا يقارن (حسب استنتاجات اشتراكية ديمقراطيّة) بما كان عليه الحال عند نشر المقال في ربيع 1895. فقد لحقه بعض التقليل بسبب المنع من حملة وإقامة «حلف» مع الماركسيّة العلنيّة قصد التضال المشترك ضدّ الشّعبيّة من جهة ثانية. أمّا أن لا يكون ما قام به الاشتراكيون الديمقراطيون في بطرسبرغ من «دفع» السيّد ستروفه «نحو اليسار» قد باء فشل تامّ فذلك ما يوضحه على نحو كامل مقال السيّد ستروفه في المجموعة التي أُحرقت (1895) وبعض مقالاته التي ظهرت في جريدة «الكلمة الجديدة» سنة 1897.

ومن جهة أخرى، عندما قرأ مقال 1895 الموجه ضدّ السيّد ستروفه يجب ألا ننسى أنّه، ومن عدّة نواحي، يمثل تلخيصا لآخر الأعمال في الاقتصاد (خصوصا «تطوّر الرأسماليّة في روسيا»). أخيرا، من الضروري أن نلفت انتباه القراء إلى آخر صفحات ذلك المقال، تلك التي تشير إلى المظاهر والتواحي الإيجابية (في نظر الماركسي) عند الشّعبيّة من جهة كونها تيار ديمقراطي ثوري قائم في البلاد عشية الثورة البرجوازيّة. فنجد في تلك الصفحات صياغة نظريّة لذات المواقف التي وجدت بعد اثنتي عشر أو ثلاثة عشر عاما تعبيرا سياسيا عمليا في «تكتل اليساريين» خلال انتخاب مجلس الدوما الثاني كما من خلال تكتيك ذلك التكتل. أمّا المناشقة فقد حاربوا فكرة دكتاتوريّة العمال والفلاحين الديمقراطيّة الثوريّة واعتبروا تكتل اليساريين أمرا غير مقبول إطلاقا وأداروا الظاهر في هذا الأمر لما للاشتراكية الديمقراطيّة الثوريّة من تقاليد جدّ عريقة وجدّه هامّة، تقاليد دأبت جريدتا «الفجر» و«الشرارة» القديمة على الحفاظ عليها. ومن البديهي أنّ القبول بتكتيك «تكتل اليساريين»، بشروط معيّنة وضمن حدود معيّنة، إنّما هو قبول ينبع حتما من ذات المفاهيم الماركسيّة الأساسيّة عن الشّعبيّة.

بعد المقال ضدّ ستروفه (1894-1895) كان كراس عنوانه «مهمات الاشتراكيين الديمقراطيّين الروس» كتب في نهاية سنة 1897 انطلاقا من تجربة نشاط الاشتراكية الديمقراطيّة في بطرسبرغ سنة 1895. إنّ المفاهيم التي كانت في مقالات وكراسات أخرى من المجموعة الحاليّة مقدّمة في شكل جدال مع جناح الاشتراكية الديمقراطيّة اليميني، إنّما هي مقدّمة في الكراس الذي نعني في شكل تفسيري. وقد أدرجت جميع مقدّمات كراس «مهمات» حتّى تتضح الصلة القائمة بين هذا العمل ومختلف فترات تطوّر حزبنا (مثل ذلك مقدّمة أكسلرود التي تبرز صلة هذا الكراس

بالتضال ضدّ «الاقتصادوية»، في حين تبيّن مقدّمة 1902 فيما يقوم تطوّر جريدتي «إرادة الشعب» و«حقّ الشعب».

ظهر مقال «جلادو الزمستوف ووحوش اللبرالية» في الخارج في جريدة «الفجر» سنة 1901. لقد وضع هذا المقال حدًا، إن أمكن القول، لعلاقة الاشتراكيين الديمقراطيّين بالسيد ستروفه كرجل سياسي. فإذا كنا سنة 1895 ندّبّه ولا نتضامن معه كحليف حذرين، فقد أعلنّا عليه الحرب سنة 1901 ككبيرالي عاجز عن تحمل عبء المطالب حتّى وإن ببعض الانسجام حتّى على صعيد الديمقراطيّة.

في سنة 1895، سنوات قبل «الرنشتاينية» في الغرب وقبل القطيعة التامة لهجمة كاملة من الأدبيّات «الطليعية» الروسية مع الماركسيّة، كنت قد أشرت إلى كيف أنّ السيد ستروفه كان ماركسيّا يمكن أن التعويل عليه وكيف يجب على الاشتراكيين الديمقراطيّين أن ينفصلوا عنه. وفي سنة 1901، بضع سنوات قبل أن يظهر حزب الكاديت في الثورة الروسية وقبل ضعف هذا الحزب في مجلسي دوما الدوّلة الأولى والثاني، كنت قد بينت حتّى مظاهر اللبرالية البرجوازية التي سنكتشف في روسيا خلال سنوات 1905-1907 من خلال النشّاط والعمل السياسيّين الجماهيريّين. أمّا مقال «وحوش اللبرالية» فقد انتقد الأفكار الخاطئة عند أحد اللبراليّين. لكن تبيّن أنّ بإمكاننا اليوم أن نعتمد هذا التقدّ كأملا تقريبا تجاه السياسة التي يسلكها أكبر الأحزاب اللبرالية خلال ثورتنا. إنّ هذا المقال سيبيّن خطأ الذين كانوا متهمّين للتفكير في أنّنا، نحن البلاشفة، قد غيرنا ما كان سلكه الاشتراكيون الديمقراطيّون من سياسة تجاه اللبرالية سابقا، حين كنا ناضل، في سنوات 1905-1907، دون رحمة ضدّ الأوهام الدستورية وضدّ حزب الكاديت. لقد بقي البلاشفة أوفياء لتقاليد الاشتراكية الديمقراطيّة ولم ينساقوا في النشوة البرجوازية التي ارتقى فيها اللبراليّون زمن «الالتواءات الدستورية» التي ستخفي، مؤقتًا، روح الجناح اليميني في حزبنا.

الكراس اللاحق هو «ما العمل؟» وقد ظهر في مطلع سنة 1902. وكان مخصّصا لنقد الجناح اليميني في المنظّات الاشتراكية الديمقراطيّة وليس أبدا في التيارات الأدبية. كان انعقد مؤقّر الاشتراكية الديمقراطيّة الأولى سنة 1898 وتألّف حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي في روسيا. وكانت منظّمة الحزب في الخارج قد اتّخذت لها اسم «اتّحاد الاشتراكيين الديمقراطيّين الروس» وداخلها كانت مجموعة «تحرير العمل». لكنّ هيئات الحزب المركزية كانت قد حطّمتها البوليس ولم

تستطع أن تتقف من جديد. وفي الواقع لم يكن بالإمكان أن نتحدّث عن وحدة الحزب؛ فلا توجد إلا في شكل فكرة، وتوصية. إن الحماسة للإضرابات وللتضال الاقتصادي كانت مكنت في تلك الفترة من بروز شكل خاص من الانتهازية في الاشتراكية الديمقراطية أطلق عليه اسم «الاقتصاديوية». ومع نهاية سنة 1900 تحديدا، حين شرعت مجموعة جريدة «الشرارة» في النشاط في الخارج، كان الانقسام، في هذا المجال قد فرغ منه. إنّه في ربيع سنة 1900 أن انسحب بليخانوف من «اتحاد الاشتراكيين الديمقراطيّين الروس» في الخارج ليؤلف منظّمة مستقلة اسمها «الاشتراكي الديمقراطي».

كان نشاط جريدة «الشرارة» يجري من حيث المبدأ على نحو مستقلّ عن الفرقتين اللتين، لكن في الواقع كان يجري إلى جانب مجموعة بليخانوف وضدّ «الاتحاد». وكانت محاولة الاندماج قد فشلت (مؤتمر «الاتحاد» و«الاشتراكي الديمقراطي» في زيورخ في حزيران 1901). إنّ كراس «ما العمل؟» هو بحث منهجي في أسباب الخلاف وفي طابعي تكتيك جريدة «الشرارة» ونشاطها التنطبي.

إنّ خصوم البلاشفة اليوم؛ المناشفة كما الكتاب في المعسكر اللبرالي البرجوازي (الكاديت و«بلا عنوان» في جريدة توفاريتش، الخ) يعمدون هذا الكراس. ولهذا السبب أدرج هذا الكراس هنا مسقطا منه مقتطفات تفصيلية جدّ صغيرة تتعلق بأمور تنظيمية أو بملاحظات جدالية ثانوية. أمّا في ما يتعلق بما هو جوهر في هذا الكراس فمن المهم أن نلفت اليوم انتباه القارئ إلى ما يلي.

الخطأ الرئيسي عند أولئك الذين يجادلون الآن «ما العمل؟» هو أنّهم يريدون، مهما كانت الأحوال، أن يفصلوا هذا الكتاب عن مساره التاريخي فيقومون بتجريد مرحلة محدّدة من تطوّر حزبنا انقضت منذ زمن بعيد. يظهر مثلا هذا الخطأ بوضوح عند بارفيس (حتى لا نذكر عددا كبيرا من المناشفة) الذي بقي يتحدّث طيلة سنوات بعد ظهور الكتاب عن الأفكار الخاطئة والمبالغ فيها التي وقع تحليلها في موضوع منظّمة الثوريّين المحترفين.

واليوم تبدو هذه التصريحات مبعث سخريّة، وكأنّ أصحابها ينتفون طمس مرحلة بأكملها في تطوّر حزبنا حتى يرفضوا ما تحقّق فيها من مكاسب كان يجب وقتئذ أن يخاض التضال في سبيلها ولكنّها تقوّت منذ زمن طويل وبلغت أهدافها.

أما أن نخرط اليوم في التفكير في أنّ جريدة «الشّارة» (في 1901 و1902!) كانت تبالغ في فكرة منظمّة من الثّوريّين المحترفين، فذلك كأنّ نتهم اليابانيّين، خلال الحرب الرّوسية-اليابانية، بأنّهم بالغوا في تقدير القوّات المسلّحة الرّوسية، وأنّهم بالغوا في الانشغال بتحضير صراعهم ضدّ تلك القوّات قبل الحرب. فحتىّ ينصر اليابانيّون وجب عليهم أن يجتمعوا كلّ قواهم ضدّ أكبر كميّة ممكنة من القوّات الرّوسية. وللأسف، كثيرون هم الذين يحكمون على حزينا من خارجه دون معرفة بالأمر وذن أن يعلموا اليوم أنّ فكرة منظمّة من الثّوريّين المحترفين كانت قد انتصرت كليّاً. لكن ذلك الانتصار لم يكن من الممكن لو لم يقع دفع تلك الفكرة إلى الصّدارة، ولو لم «نبالغ» في تلقينها للذين كانوا يعرقلون تحقيقها.

«ما العمل؟» هو خلاصة تكتيك جريدة «الشّارة» وسياسة منظمّة «الشّارة» في 1901 و1902. إنّه «خلاصة» لا أكثر ولا أقلّ. فأيّ امرئ يريد أن يكلف نفسه عناء التعرّف على جريدة «الشّارة» في سنتي 1901 و1902 لن يكون له سوى أن يقتنع بذلك. أمّا أن نحكم على هذه الخلاصة دون دراية وفهم التّضال الذي خاضته جريدة «الشّارة» ضدّ التيار الاقتصاديّ الذي كان مهمّنا وقتئذ، فكأنّنا نجادل جدالاً عمياً. لقد كالت جريدة «الشّارة» في سبيل تكوين منظمّة من ثوريّين محترفين، وكالت باستقامة خاصّة في 1901 و1902؛ فهزمت الاقتصاديّة التي كانت مهمّية وقتئذ، وركّزت تلك المنظمّة في 1903، وحافظت عليها رغم الانشقاق الذي كان لا بدّ أن ينشأ في ما بعد بين أنصار «الشّارة»، ورغم كلّ ضحيج العاصفة خلال كامل مدّة الثورة الرّوسية من 1901-1902 إلى 1907.

لكن الآن، وقد فرغنا من التّضال في سبيل هذه المنظمّة منذ زمن طويل، وقد زرنا البذرة، واشتدّ عود السّنبل، وانتهى حصادها، ها أنّ أشخاصاً يطّلون صارخين: «لقد أعطينا مدى مبالغ فيه لفكرة منظمّة من الثّوريّين المحترفين!»

أليس ذلك سخريّة؟

خذوا كامل الفترة السّابقة للثّورة وكامل التّلاثين شهراً الأولى من الثّورة (1905-1907)، وقارنوا حزينا الاشتراكي الديمقراطيّ بالأحزاب الأخرى من زاوية الانسجام والتنظيم والاستمرار. يجب عليكم الاعتراف، من هذه الزّاوية، بما لحزينا من علويّة على جميع الأحزاب الأخرى: الكاديت والاشتراكيون الثّوريّون، إلخ، دون أدنى تشكيك ممكن. قبل الثّورة، صاغ الحزب الاشتراكي



الديمقراطي برنامجا اعترف به رسميًا لجميع أعضائه، وعندما أضيفت عليه تحويلات لم تنشأ  
اقتسامات بسبب البرنامج. فمن 1903 إلى 1907 (رسميًا من 1905 إلى 1906) رغم الانقسام،  
قدمت الاشتراكية الديمقراطية أكبر المعطيات عن الوضع الداخلي (محاضر المؤتمر الثاني المشترك،  
المؤتمر الثالث البلشفي، المؤتمر الرابع المشترك أو مؤتمر ستوكهولم المشترك). ورغم هذا الانشقاق  
استطاع الحزب الاشتراكي الديمقراطي، قبل الأحزاب الأخرى، أن يستغل الفترة العرضية من  
الحرية ليحقق منظمة شرعية لها نظام ديمقراطي مثالي، نظام انتخابي وتمثيلي في المؤتمر وفق عدد  
أعضاء الحزب المنظمين. ولن تجدوا، إلى حد ذلك اليوم، لا عند الاشتراكيين الثوريين ولا عند  
الكاديت، رغم أنّ هذا الحزب البرجوازي الشرعي عمليًا كان أكثر تنظيمًا ويمتلك مصادر مالية أعلى  
بما لا يقاس بما كان لدينا وله من حرية استغلال الصحافة وله إمكانيّة النشاط العلني مثل ما كان  
عند حزبنا. ومن ناحية أخرى، ألم تبيّن انتخابات مجلس الدوما الثاني، التي شاركت فيها جميع  
الأحزاب، على نحو يبيّن أنّ درجة انسجام حزبنا وفرقتنا البرلمانية كانت أعلى مما كانت عليه في  
الأحزاب الأخرى.

إذن، ما الذي أعطى حزبنا هذا الانسجام وهذا التضامن وهذا الاستقرار؟ إنّها منظمة  
الثوريين المحترفين التي خلفتها عنابة جريدة «الشرارة». إنّ من عرف جيدًا تاريخ حزبنا وعابش  
بنفسه فترة تكوّنه، إنّ مثل ذلك الشخص لن يحتاج إلّا لظرة سريعة إلى تركيبة وفد أئمة فرقة إلى  
مؤتمر لندن مثلًا حتى يقتنع ويتعرّف حالًا على التواء القديمة، نواته الأساسية، لقد صانوا الحزب  
بإخلاص وساروا به حتى اشتدّ عوده. ومن المعلوم أنّ السبب الأول في هذا التجاح إنّما يكمن في  
كون الطبقة العاملة، التي يؤلّف أحسن عناصرها الاشتراكية الديمقراطية، تتميز، لأسباب  
اقتصادية موضوعية، عن جميع طبقات المجتمع الرأسمالي بقابلية كبرى للتنظيم. فلو لم يكن الحال  
كذلك لكانت منظمة الثوريين المحترفين لعبة ومغامرة وواجحة لا طائل وراءها، وكراس «ما  
العمل؟» أكدّ عديد المرات أنّ هذه المنظمة التي يدافع عنها لا معنى لوجودها إلّا إذا كان ذلك في  
صلة بـ«الطبقة الثورية حقًا والتي تهض إلى التضال بعفوية». لكنّ القابلية الموضوعية القصوى  
عند الطبقة العاملة قصد التجمّع في طبقة إنّما يحقّقه بشرّ أحياء في أشكال تنظيمية محدّدة ولا  
يكون الأمر على نحو آخر. وما من منظمة أخرى غير «الشرارة» استطاعت في ظروفنا التاريخية  
في روسيا في سنوات 1905-1900 أن تخلق حزبا اشتراكيًا ديمقراطيًا مثل ذلك الذي يوجد الآن.  
لقد قام الثوري المحترف على الوجه الأحسن بالعمل الذي يجب عليه أن ينجزه في تاريخ

الاشتراكية العاليتة الروسية. إنّ هذا العمل الذي تجاوز، منذ زمن طويل، إطار «الحلقات» الضيق في سنوات 1902-1905، ما من قوة في مستطاعها اليوم أن تسحقه. وما يصدر مؤخرًا من نعيق عن أشخاص متهمين فيه بالمبالغة من كانوا يناضلون حينها في سبيل ضمان التحضير لانجاز المهات الكفاحية، لا يمكنه أن يقلل من أهمية ما كان قد تحقّق من مكاسب.

لقد كنت قد أشرت إلى إطار الحلقات الضيق زمن «الشّارة» القديمة (منذ نهاية سنة 1903، مع العدد 51، انعطفت «الشّارة» نحو المنشقّية معلنة أنّ «هنالك هوة عميقة بين «الشّارة» القديمة و«الشّارة» الجديدة» وهي كلمات تروتسكي من كراس أقرته الإدارة المنشقّية ل«الشّارة»). ومن المناسب أن تقدّم لقارئ اليوم بعض الكلمات لشرح موضوع الزوح التي كانت تسود تلك الحلقات. عندما نقرأ «ما العمل؟» وكراس «خطوة إلى الأمام، خطوتان إلى الوراء» الذي تلاه، سيرى القارئ كيف يجري الصراع المتحمّس، أحيانًا جارحًا ومدمّرًا، بين **الحلقات في الخارج**. ولا جدال في أنّ لذلك الصراع عدّة نواحي جذابة. ولا جدال في أنّه ظاهرة ممكنة فقط في حركة عاليتة لا تزال فنيّة تفتقد التضح في البلد المعني. ولا جدال في أنّ على مناضلي الحركة العاليتة الحاليّة في روسيا أن يقطعوا مع العديد من التقاليد التي نشأت في الحلقات، وأنّ عليهم أن ينسوا ويتخلّوا على العديد من مظاهر التعاسة الموروثة عن حياة الحلقات وخصوماتها حتى ينجزوا ممهات الاشتراكية الديمقراطيّة الزاهنة بتصميم مضاعف. إنّ تقوية الحزب بعناصر **عاليتة** هو ما يمكنه لوحد، بالارتباط بنشاط جماهيري مكشوف، أن يقتلع جميع آثار عقلية الحلقات، ذلك الإرث عن الماضي الذي لا علاقة له بالمهات الزاهنة. فانتقال حزب العمال إلى نمط التنظيم الديمقراطي، انتقال أعلنه البلاشفة في جريدة «الحياة الجديدة» في تشرين الثاني 1905 حين تكوّنت شروط اللّشاط المكشوف، هذا الانتقال كان يمثّل أساسًا قطيعة نهائية مع ما كان قد بلي من إرث الحلقات...

نعم «مع ما كان قد بلي» لأنّه لا يكفي أن نحكم على عقلية الحلقات بل يجب أن نفهم مغزاها بأن نضعها في الطّروف الخاصّة وقتنذ. كانت الحلقات ضروريّة في زمنها ولعبت دورًا إيجابيًا. ففي بلد أوتوقراطي بوجه عام، وفي الطّروف التي خلقها كامل تاريخ الحركة الثّوريّة الروسية بوجه خاص لا يمكن للحزب العالبي الاشتراكي أن يتطوّر إلّا انطلاقًا من الحلقات. فهي ضيقة ومغلقة ومؤسسة في أغلب الأحيان على الصّداقة الشّخصيّة بين عدد ضئيل، ولا تشكل إلّا مرحلة

ضرورية في تطوّر الاشتراكية والحركة العمالية في روسيا. لكن مع تعاظم تلك الحركة تطرح قضية تجميع تلك الحلقات وخلق صلات صلبة فيما بينها وخلق استمرار. لكن لم يكن من الممكن حلّ هذه القضية دون خلق قاعدة عملية صلبة «خارج نفوذ» الأوتوقراطية؛ أي في الخارج. إذن، كانت الحلقات قد ولدت في الخارج بفعل قوّة الضرورة. وما من صلة تربط بعضها ببعض ولم تكن تخضع لنفوذ حزب روسي. فلم يكن من الممكن ألا تكون لديها نظرات مختلفة في المهات الأساسية للحركة في تلك الفترة؛ أي خاصة في طريقة خلق قاعدة عملية من خلالها تساهم تلك الحلقات في تركيز حزب مشترك. في مثل تلك الظروف لا يمكن ألا تواجه الحلقات بعضها البعض الآخر. واليوم، إذا نظرنا إلى الوراء، نرى بوضوح أية واحدة من تلك الحلقات كانت قادرة على انجاز وظيفة قاعدة عملية. لكن في بداية نشاط مختلف الحلقات ما كان بإمكان أيّ أحد أن يقول ستكون هذه أو تلك، وكان الصراع هو وحده الذي يستطيع أن يفصل في الجدل. نحن نتذكر برفوس لما اتهم «الشراة» القديمة فيما بعد بأنها تخوض معركة لتدمير الحلقات ثم بشر بسياسة توافقية بعد أن تلقى ضربة. لكن من السهل أن نتكلّم بعد أن نتلقى ضربة، وأن نتكلّم فذلك يعني أن نظهر كيف أننا لم نفهم ما الظروف التي كانت وقتئذ. ففي المقام الأول لم يكن لدينا أي أساس نحكم وفقه على تأثير وجدية هذه الحلقة أو تلك. فقد كانت هنالك حلقات عديدة، كان يبالغ في أهميتها لكن في ذلك الوقت كانت تريد من خلال التّصال أن تبرهن على وجودها، هي منسية الآن. وفي المقام الثاني، كان الخلاف بين الحلقات يكمن في الوجهة التي سيأخذها عمل لا يزال جديدا. ولقد لاحظت وقتئذ (في «ما العمل؟») أنّ الخلافات تظهر ضئيلة لكن لها في الحقيقة أهمية عظيمة نظرا لكونه مع ظهور أنشطة جديدة وظهور الحركة الاشتراكية الديمقراطية فإنّ تحديد الطابع العام لتلك الأنشطة ولتلك الحركة ينعكس بقوة كبيرة على الدعاية والتحرير والتّظيم. وكلّ النقاشات اللاحقة صلب الاشتراكيين الديمقراطيّين دارت حول الوجهة التي سيأخذها العمل السياسي لحزب العمال في هذه أو تلك من الحالات الخاصة. لكن الخلافات كانت تقوم في تحديد المبادئ الأكثر عمومية والمهات الأساسية لأيّ سياسة اشتراكية ديمقراطية بوجه عام.

لقد أدّت الحلقات دورها، وفي الوقت الحالي، وولّى عهدها. لكن إذا لم يعد هنالك من سبب لوجودها، فذلك فقط لأنّ نضالها كان قد طرح القضايا الأكثر أساسية عند الاشتراكية الديمقراطية ولأنّها حلّت تلك القضايا بروح ثورية صلبة لتخلق بذلك قاعدة صلبة تجعل العمل الحزبي على نطاق واسع أمرا ممكنا.

سوف لن أقف إلا عند اثنتين من القضايا التي أثارها الكتاب بسبب كراس «ما العمل؟» وهما كما يلي. بعد صدور كراس «خطوة إلى الأمام، خطوتان إلى الوراء» بوقت قصير أعلن بليخانوف سنة 1904 في جريدة «الشّارة» أنه على خلاف مبدئي معي في قضية العفوية والوعي. ولم أرد على ذلك الإعلان (ما عدا ملاحظة نشرت في جريدة «إلى الأمام» في جنيف) ولا على تكرر هذا المحور في الأدبيات المنشوية. فإذا لم يكن قد قمت بذلك فلا أتقد بليخانوف كان له طابع خصومة عقيمة يّين يرتكز على فقرات وتعابير منعزلة مجزدة من سياقها، كنت قد صغتها على نحو كاف من الصحة أو خاطئة، وصمت ذلك التقد عن المحتوى العام للكراس وروحه. نُشر «ما العمل؟» في مارس 1902. وفي شهر حزيران أو تموز من ذات السنة نُشر مشروع برنامج الحزب (صاغه بليخانوف وبتعديلات من هيئة تحرير «الشّارة»). صيغت العلاقة بين العفوي والوعي في ذلك المشروع باتفاق مع مجمل هيئة تحرير «الشّارة» (والنقاش في موضوع البرنامج دار صلب هيئة التحرير بيني أنا نفسي وبليخانوف لكن لم يكن ذلك في هذه القضية. كما قد تحدثنا في اختراق الملكية الكبيرة الملكية الصغيرة، وكنت قد طالبت بصيغة أكثر تحديدا من تلك التي عند بليخانوف؛ كما قد ناقشنا كذلك اختلاف وجهة نظر الطبقة العاملة عن وجهة نظر الطبقات الكادحة بوجه عام، وأكدت على أن نضع تحديدا أكثر دقة للطابع العمالي الصّرف للحزب).

وبالتالي، لا يمكن أن يكون هنالك اختلاف مبدئي في هذا الموضوع بين مشروع البرنامج و«ما العمل؟». في المؤتمر الثاني (آب 1903)، أراد مارتيانوف، وهو اقتصادوي في ذلك الوقت، أن يعارض مفاهيمنا في العفوية والوعي التي ضمنت في البرنامج. لكنّ جميع أنصار «الشّارة» وقفوا ضده مثلا أشرت إلى ذلك في «خطوتان»، إلخ. إذن من الواضح أن اختلافات تفصل من حيث الأساس «الشّارة» عن الاقتصادويين الذين باسروا هجومهم على ما هو مشترك بين «ما العمل؟» ومشاريع البرنامج. وفي المؤتمر الثاني لم تكن لي تية أن أبني مما صغته في «ما العمل؟» شيئا من قبيل البرنامج أو أن يكون تضمينا لمبادئ خاصة. وعلى عكس ذلك، كنت قد استخدمت عبارة سيتكرر ذكرها لاحقا هي العمود المعوج. لقد كنت قلت أنّ «ما العمل؟» قوم العمود الذي عوّجه الاقتصادويون (أنظر محاضر المؤتمر الثاني ل.ح.إ.د. سنة 1903، جنيف 1904) وذلك تحديدا لأننا نقوم بجوية الانحرافات حتى يظلّ «عمود»نا تام الاستقامة.

إن مغزى هذه الكلمات لا يبعث على التشويش: «ما العمل؟»، بجذاله، يصحح الاقتصادوية. فسيكون من الخطأ أن ننظر في محتوى هذا الكراس مجزدين إياه من تلك المهمة. وأريد أن أشير إلى أن المقال الذي كتبه بليخانوف ضد «ما العمل؟» لم تقع إعادة نشره ضمن مجموعة «سننان» التي أصدرتها جريدة «الشرارة» الجديدة؛ لذا، سوف لن أغير هنا حجج بليخانوف وسأعكف على أن أشرح جوهر الأمر لقارئ اليوم الذي يستطيع أن يعثر على مراجع في هذه القضية في العديد من المنشورات البلشفية.

ملاحظة أخرى تتعلق بقضية التضال الاقتصادي والنقابات. غالبا ما يقع في الأدب السياسي التوسع في مفاهيمي في هذا الموضوع في اتجاه عكسي. لذا، من الضروري أن نشير إلى أن عديد الصفحات في «ما العمل؟» مخصصة لتفسير الأهمية العظيمة للنضال الاقتصادي والنقابات. وبوجه خاص قد اتخذت حينها موقفا يقبل بحياذ النقابات، ومذ ذاك، لم أعبر عن رأي بطريقة أخرى، لا في كراساتي ولا في مقالاتي الصحفية، رغم ما قدمه خصومي من عديد التأكيدات. فقط مؤتمر ح.ع.إ.د. في لندن والمؤتمر الاشتراكي العالمي في شتوتغارت جعلاني أستنتج أنه لا يمكننا، على الصعيد المبدئي، أن ندافع عن حياد النقابات. فالمبدأ الوحيد الصحيح هو أن تقرب النقابات من الحزب أكبر قدر ممكن. فيجب أن تكون سياستنا هي السعي لتقريب النقابات من الحزب وربطها به، سياسة يجب توخيها بثبات وصلابة في كامل دعايتنا وتحريضنا في نشاطنا التنظيمي دون أن نستجدي، بأي ثمن، «موافقات» شكلية محضة ودون أن يصل الأمر إلى السعي إلى أن نطرد من النقابات من كانوا غير موافقين.

نشر كراس «خطوة إلى الأمام، خطوتان إلى الوراء» في جنيف سنة 1904. إنه يصف المرحلة الأولى من الانقسام إلى مناشفة وبلاشفة الذي يعود أصله إلى المؤتمر الثاني (أوت 1903). وقد اختزلت هذا الكراس إلى النصف تقريبا لأن التفاصيل الثانوية للنضال التنظيمي، التي كانت تدور بوجه خاص حول تركيبة هيئات الحزب، لا أهمية لها بالنسبة لقارئ اليوم وتستحق أن تكون في طي التسيان. لكن ظهر لي أن تحليل صراع المفاهيم التكنيكية وغيرها في المؤتمر الثاني وكذلك الجدال في المفاهيم المنشفية في المجال التنظيمي جوهريان هنا: فكلاهما ضروريان حتى نفهم جيدا المنشفية والبلشفية كتيارين طبعا مجمل نشاط حزب العمال في ثورتنا.

أبقي من نقاشات مؤتمر الحزب الاشتراكي الديمقراطي الثاني تلك التي تعلقت بالبرنامج الزراعي. فما لا جدال فيه أن الأحداث بينت أن برنامجنا وقتئذ (استرجاع قطع الأرض المتزعة) كان ضيقاً إلى أقصى حدّ وكان **ينقص** من أهمية قوى الحركة الديمقراطية الثورية الفلاحية. لكنني سأحدث في ذلك بتفصيل أوسع في المجلد الثاني من هذه الطبعة. فما يستحق أن نشير إليه هنا هو أن برنامجاً زراعياً ضيقاً إلى أقصى حدّ كهذا كان يظهر وقتئذ **واسعاً جداً** في عين الجناح اليميني للحزب الاشتراكي الديمقراطي. فقد انخرط مارتينوف والاقتصاديون الآخرون في نضال ضده بحجة أنه كان يذهب بعيداً جداً! وعلى هذا النحو أيضاً نحكم على الأهمية العملية الكبيرة للتضال الذي خاضته «الشراة» القديمة ضدّ الاقتصادية وضدّ التقليل من حجم البرنامج وإضعاف كامل طابع السياسة الاشتراكية الديمقراطية.

لقد انحصرت الخلافات مع المناشفة وقتئذ (التصف الأول من سنة 1904) في قضايا تنظيمية. ولقد حدّدت موقف المناشفة بأنه «انتهازية في قضايا التنظيم». ولقد ردّ إكسليرود على ذلك في رسالته إلى كاوتسكي قائلاً: «إنّ ملكاتي الضعيفة لا تمكّني من فهم ما معنى «انتهازية في قضايا التنظيم» التي يُدفع بها في الساحة كأنّها هي شيء مستقلّ لا صلة عضوية لها بمفاهيم التكتيك والبرنامج». (رسالة بتاريخ 6 حزيران 1904، نشرت في مجموعة «سنتان»، الجزء 2، ص 149، إصدار «الشراة» الجديدة)

إنّ الصلة العضوية التي كانت تربط الانتهازية في مفاهيم التكتيك بالانتهازية في مفاهيم التنظيم قد أظهرها كامل تاريخ المنشفية من 1905 إلى 1907 على نحو كاف. أمّا بالنسبة «للانتهازية في قضايا التنظيم»، هذا الشيء «الذي لا يمكن فهمه»، فإنّ الحياة قد أكّدت صحّة تقديري على نحو أسطع مما قد كنت أنتظر. فيكفي أن نشير إلى أنّ **المنشفي** تشريفانين نفسه مضطّر اليوم إلى الاعتراف (أنظر في كراسه عن مؤتمر ح.ع.ا.د. في لندن سنة 1907) بأنّ خطة إكسليرود التنظيمية («المؤتمر العمالي» الشهير، إلخ.) لا يمكنها إلا أن تخلق اقسامات تضمر قضية الطبقة العاملة. لكن ليس ذلك كلّ الأمر. فهذا المنشفي تشريفانين ذاته روى كيف أنّ بليخانوف اضطّر، داخل الفرقة المنشفية في لندن، إلى محاربة «الفوضوية في مجال التنظيم». وهكذا إذن لم يذهب حمدي سدي عندما خضت التضال ضدّ «الانتهازية في قضايا التنظيم» سنة 1904 بما أنّ

تشريفانين وبلخانوف كانا مضطرين إلى الاعتراف بما لدى المناشفة التافذين من "فوضوية في مجال التنظيم" سنة 1907.

لقد مرّ المناشفة من الانتهازية في قضايا التنظيم إلى الانتهازية في قضايا التكتيك. وكراس «حملة الزيمستفو وخطة «الشراة»» (الذي ظهر في جنيف في نهاية سنة 1904، يبدو أنّ ذلك كان في تشرين الثاني أو في كانون الأول) يشير إلى أولى خطواتهم في ذلك الاتجاه. ليس نادرا أن نعثر في الأدبيات الزاهنة على فقرات تحوي دفاعا عن أنّ الخلافات في قضية حملة الزيمستفو تزعم أنّ البلاشفة ينفون أن تكون للمظاهرات أمام أعضاء الزيمستفو أية جدوى. وسيلاحظ القارئ أنّ هذه النظرة خاطئة تماما. فقد نشأت الخلافات لما شرع المناشفة وقتند في القول بأن لا نزرع الفرع في اللبراليين، وأكثر من ذلك، لأنه بعد إضراب رستوف سنة 1902 وبعد إضرابات ومتريس صيف 1903، أعلن المناشفة في ليلة التاسع من كانون الثاني 1905 أنّ المظاهرات أمام الزيمستفو تمثل أرقى نمط من المظاهرات. في العدد الأوّل من الجريدة البلشفية «إلى الأمام» الذي صدر في جنيف في كانون الثاني 1905، كان تقديرنا لـ"خطة حملة الزيمستفو" المنشقة يجد تعبيراً عنه في عنوان المقال المخصّص لهذه القضية: «إضرابات العمال الجيدة وتحمينات بعض المثقفين السيئة».

آخر كراس نعيد نشره هنا كان قد نُشر في جنيف خلال صيف 1905. إنّه كراس «خطنا الاشتراكية الديمقراطية في الثورة الديمقراطية». نجد فيه هذه المرّة عرضاً منهجياً للخلافات الأساسية في التكتيك مع المناشفة. إنّ قرارات المؤتمر الثالث لـح.ع.ا.د.ر. (البلشفي) المنعقد في لندن في الزبيع والمجلس المنشفي في جنيف قد استوفيا نقاط خلافاتها لينتهي إلى اختلاف أساسي في تقدير ثورتنا البرجوازية في مجملها من وجهة نظر ممحات الطبقة العاليتة. ففي حين يوكل البلاشفة إلى الطبقة العاليتة مهمة القيادة في الثورة الديمقراطية، فإنّ المناشفة يحرصونها في لعب دور «أقصى المعارضة». وفي حين يحدّد البلاشفة طابع الثورة ومغزاها الطبقيين على نحو إيجابي معليين: الثورة المظفرة هي الثورة التي تقود إلى «دكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية الثورية»، يتادى المناشفة في تأويلهم الخاطئ لمفهوم الثورة البرجوازية حتّى أنّهم انتهوا إلى أن تقبل الطبقة العاليتة بدور تابع للبرجوازية في الثورة ووقوداً فيها.

ونعلم كيف تجسدت تلك الخلافات المبدئية في التطبيق: مقاطعة البلاشفة مجلس دوما بولغين، تردّد المناشفة؛ مقاطعة البلاشفة مجلس دوما وايت، تردّد المناشفة الذين كانوا قد دعوا للتصويت ولم يقوموا به في انتخاب مجلس الدوما؛ دفاع المناشفة عن وزارة الكاديت وسياسته في مجلس الدوما الأول، وفضح البلاشفة الأوهام الدستورية وطبيعة الكاديت المضادة للثورة مجزم، وقاموا بالدعاية لـ«لجنة تنفيذية من اليساريين»؛ وأخيرا، تكتل يساري للبلاشفة وتكتل المناشفة والكاديت في انتخاب مجلس الدوما الثاني، الخ، الخ.

اليوم، تظهر «فترة الكاديت» (وتلك عبارة مقتبسة من مقال: «انتصار الكاديت ومهمات حزب العمال»، آذار 1906) وقد أشرفت على نهايتها. لقد نزع الفناع عن طبيعة الكاديت المضادة للثورة تماما. والكاديت نفسه شرع يعترف بأنه لا يتوقّف عن محاربة الثورة، وانتهى المطاف بالسيد ستروفه إلى التهادي في الحاص من أفكار الكاديت اللبرالية دون مراوغة. واليوم، كلّما تقدّر الطبقة العاليتة الواعية كامل فترة الكاديت في مجملها وهذه «الالتواءات الدستورية» بأكثر تمعن، إلّا وأصبح أكثر بدهاية أن يتمكّن البلاشفة من تقدير هذه الفترة وطبيعة الكاديت تقديرا مسبقا وصحيحا، وأن يسلك المناشفة بالفعل سياسة خاطئة مغزاها الموضوعي إنّما هو استعاضة السياسة المستقلة للطبقة العاليتة بسياسة تبعية للبرالية البرجوازية.

عندما نلقي نظرة إجمالية على صراع هذين الاتجاهين في الماركسية وفي الاشتراكية الديمقراطية الترويسيتين خلال الاثنتي عشر سنة هذه (1895-1907)، لا يفوتنا أن نستخلص أنّ «الماركسية العنيتة» و«الاقتصادية» و«المنشفية» هي أشكال مختلفة لنفس الاتجاه التاريخي الواحد. ف«الماركسية العنيتة» عند السيد ستروفه (1894) ومن شابهه إنّما تمثل انعكاس الماركسية في الأدب البرجوازي. و«الاقتصادية» كتوجه خاص في عمل الاشتراكية الديمقراطية سنة 1897 وخلال السنوات اللاحقة إنّما كانت قد أنجزت بالفعل برنامج «الكريديو» اللبرالي البرجوازي: النضال الاقتصادي للعمال، والنضال السياسي للبراليين. أمّا المنشفية فليست فقط تيارا أدبيا، وليست فقط توجهها في نشاط الاشتراكية الديمقراطية، بل هي فرقة موحدة خاضت طيلة الفترة



السابقة للثورة الروسية (1905-1907) سياسة مميزة ترمي فعلا إلى أن تكون الطبقة العاملة تابعة للبرالية البرجوازية<sup>1</sup>.

في جميع البلدان الرأسمالية، تكون الطبقة العاملة، حتما، مرتبطة بجارتها اليمينية: البرجوازية الصغيرة، بالآلاف الدرجات الانتقالية. وفي جميع الأحزاب العاملة لا يمكن ألا يتشكل جناح واضح المعالم إلى حدّ معين يمثل، من خلال مفاهيمه وتكنيكه و«خطه» التنظيمي، اتجاهات الانتهازية البرجوازية الصغيرة. وفي بلد برجوازي صغير مثل روسيا، وفي زمن الثورة البرجوازية، وفي زمن أولى بدايات حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الفتى، لا يمكن لتلك الاتجاهات ألا تظهر في على نحو أكثر قوة وأكثر وضوحا وأكثر بريقا مما هو في أوروبا. فأن نستوعب مختلف الأشكال التي يكتسبها هذا الاتجاه عند ظهوره في الاشتراكية الديمقراطية الروسية خلال مختلف مراحل تطورها إنّما ذلك هو الأمر الضروري حتى تقوي الماركسية الثورية وحتى نشهد الطبقة العاملة الروسية في نضالها في سبيل التحرر.



<sup>1</sup> إن تحليل صراع مختلف التيارات والتهامات في المؤتمر الثاني للحزب (أنظر في كراس «خطوة إلى الأمام، خطوتان إلى الوراء»، 1904) يبرهن على نحو لا يقبل التحض على أنّ هنالك صلة مباشرة وحينية بين «اقتصادوية» سنة 1897 والسنوات اللاحقة و«المنشفية». أما الصلة بين «الاقتصادوية» في الاشتراكية الديمقراطية و«الماركسية العلنية» أو «ستروفية» سنوات 1895-1897، فقد سلّطت عليها الضوء في كراسي «ما العمل؟» (1902). فالماركسية العلنية والاقتصادوية والمنشفية ليس مرتبط بعضها بعض في المجال الإيديولوجي فقط وإنّما هي أيضا مترابطة بتتابع تاريخي مباشر. — لينين